

المشيئة الإلهية لمظلومية الأئمة الحسين عليهما السلام

السيد شهيد طالب الموسوي^(١)

تمهيد

إنّ البحث في المشيئة الإلهية للمظلومية والمأساة يمكن تصوّره في أمرين:
الأوّل: تبني مفهوماً واضحاً حول المشيئة الإلهية؛ باعتبارها من المباحث الدقيقة،
والتي تدخل في مجال علم الكلام إلى جانب مبحث الإرادة؛ فإنّ تكوين مثل هذا المفهوم
أمرٌ ضروري، خاصّةً عند البحث في قضية الإمام الحسين عليه السلام، وتلك المظلومية التي
أضحت تمثّل أوضح أشكال الظلم على الإنسان، ذلك الموجود الذي كرّمه الله تعالى
على كثيرٍ ممّن خلق.

الثاني: إنّ المظلوميّة والمأساة نوعٌ من أنواع البلاء والامتحان، الذي يُعتبر من
السّنن الإلهية الجارية على الخلق، والتي من شأنها تحقيق أهداف إلهية في هذا الوجود،
سواء على مستوى الكمال الفردي؛ باعتبار ما للمظلومية أو البلاء - بشكلٍ عام - من أثرٍ
فعّال على مستوى تربية الفرد وبنائه نفسياً؛ ليكون محلاً لفيض الرحمة والهداية الإلهية،
أو على مستوى الكمال العام؛ باعتبار ما يحققه الفرد أو الجماعة الداخلة في هذا الاختبار،

(١) كاتب وباحث إسلامي.

والناجحة فيه من أن يكونوا الأسوة الحسنة للمؤمنين في تحمّل أعباء الرسالة الإلهية، أو الحفاظ عليها بمستوى من المستويات، وعلى أقلّ تقدير الحفاظ على معالمها من الاندراست تحت تأويلات المبطلين، وسطوة الظالمين على الناس فكرياً ومادياً. وهي مسؤولية عظيمة يتصدّى لها رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه في أن يكونوا حماة الدين والقيم الإنسانية، التي رسّخت معالمها الأديان السماوية على مرّ العصور وتدافع الدهور.

تعريف المشيئة

المشيئة في اللغة محل نزاع بين اللغويين: فمنهم من ذهب إلى ترادف المعنى بين المشيئة والإرادة. ومنهم من ذهب إلى تباينهما. ذكر ابن منظور ما نصّه: «المشيئة: الإرادة، شئتُ الشيءَ أشأؤه شَيْئاً، ومشيئةً ومشاءً، ومشيئةً»^(١).

وفي موضعٍ آخر يُنقل عن الجوهرى قوله: «والإرادة: المشيئة...»^(٢). وعليه؛ يظهر أنّ بعض علماء اللغة قائلون بالترادف بين المشيئة والإرادة. إلّا أنّ الزبيدي في تاج العروس فرّق بينهما في قوله: «شئتُه - أي: الشئْتُه - أشأؤه شَيْئاً ومشيئةً كخطيئة، ومشاءً ككراهة، ومشيئةً كعلانية: أردته. قال الجوهرى: المشيئة: الإرادة. ومثله في المصباح والمحكم، وأكثر المتكلمين لم يفرّقوا بينهما، وإن كانتا في الأصل مختلفتين، فإنّ المشيئة في اللغة: الإيجاد، والإرادة: طلب»^(٣). إلّا أنّه يمكن القول: إنّ المشيئة لغة غير الإرادة - كما ذكر الزبيدي - وما أورده

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ١، ص ١٠٣.

(٢) المصدر السابق: ج ٣، ص ١٩١.

(٣) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس: ج ١، ص ١٨٥.

الأصفهاني في المفردات بقوله: «والمشيئة عند أكثر المتكلمين كالإرادة سواء، وعند بعضهم المشيئة في الأصل: إيجاد الشيء وإصابته. وإن كان قد يُستعمل في التعارف موضع الإرادة، فالمشيئة من الله تعالى: هي الإيجاد، ومن الناس: هي الإصابة. قال: والمشيئة من الله تقتضي وجود الشيء؛ ولذلك قيل: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»^(١).

فالمشيئة لغة: إيجاد الشيء، ولكن ليس إيجاد الشيء على نحو التحقق الفعلي الخارجي، بل هو أول مراتب وجوده، كما ورد عن الرضا عليه السلام حين سأله يونس: «قلت: لا يكون إلا ما شاء الله، وأراد وقضى؟ فقال: لا يكون إلا ما شاء الله وأراد وقدر وقضى. قال: فقلت: فما معنى (شاء)؟ قال: ابتداء الفعل. قلت: فما معنى (أراد)؟ قال: الثبوت عليه. قلت: فما معنى (قدر)؟ قال: تقدير الشيء من طوله وعرضه. قلت: فما معنى (قضى)؟ قال: إذا قضاه أمضاه فذلك الذي لا مرد له»^(٢).

وورد عنه عليه السلام أيضاً قوله: «المشيئة: الاهتمام بالشيء، والإرادة: إتمام ذلك الشيء»^(٣). حيث إن الشيء يتسلسل بمراتب وجوده إلى حدّ القضاء، فيُضَيِّه الله تعالى؛ أي: يُحَقِّقه ويُعَيِّنه، وإلى ذلك يُشير قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤).

المشيئة الإلهية في روايات أهل البيت عليه السلام

إضافةً إلى ما تضمّنته آيات الذكر الحكيم من بيانٍ لمفهوم المشيئة، فإننا نجد أنّ الروايات الواردة عن أهل البيت عليه السلام كذلك قد بيّنت - وبشيءٍ من التفصيل - هذا

(١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن: ص ٢٧١.

(٢) الخبوشاني، عزيز الله، مسند الإمام الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢٠.

(٣) الديلمي، الحسن بن علي، إعلام الدين في صفات المؤمنين: ص ٣٠٧.

(٤) البقرة: آية ١١٧.



المصطلح باعتباره مفهوماً قرآنياً، إضافةً إلى المسؤولية الإلهية التي يتحملونها في بيان الحق، ودفع الأباطيل عن فهمه؛ وباعتبار ما له من مدخلية تصبّ في فعل العبد، وهو ما رَوَّج له بنو أمية وأتباعهم، بطرح مفاهيم خاطئة من شأنها التشويش على أذهان العامة من الناس؛ لتبرير أفعالهم الوحشية، ونسبتها إلى الله تعالى ظلماً وعدواناً.

وأول محاولة كانت في مجلس ابن زياد، حيث تذكر الرواية: «ثم قال لعلي بن الحسين عليه السلام: مَنْ أنت؟ قال: علي بن الحسين. قال: أليس قَتَلَ الله علي بن الحسين؟ قال: كان لي أخٌ يُسمَّى علياً قَتَله الناس. قال ابن زياد: بل الله قَتَله. فقال علي بن الحسين: الله يتوفَّى الأنفس حين موتها»^(١).

كذلك ما ورد في مخاطبة ابن زياد للعقيلة زينب عليها السلام: «فأقبل إليها فقال: الحمد لله الذي فضحككم وأكذب ألدوئلكم!! فقالت: إِنَّمَا يُفْتَضَحُ الفاسق وَيُكْذَّبُ الفاجر، وهو غيرنا. فقال ابن زياد: كيف رأيتِ صُنْعَ الله بأخيك وأهل بيتك؟ فقالت: ما رأيتُ إلا جميلاً، هؤلاء قومٌ كُتِبَ عليهم القتال، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتُحاجُّ وتُخاصَم، فأنظر لِمَن يكون الفُلج يومئذٍ، هبلك أُمك يا بن مرجانة»^(٢).

وبعد هذه المقدمة نقول: إنَّ روايات أهل البيت عليهم السلام تعرَّضت بشكلٍ غير محدود لبيان المشيئة الإلهية، وإن كُنَّا نجد الغرابة والغموض في بعض الأخبار، إلا أنَّنا بضمِّ الأخبار الأخرى نستطيع الوقوف على معنى واضح للمشيئة الإلهية، ومن جملة الأخبار الواردة في بيان المشيئة الإلهية ما جاء عن الصادق عليه السلام: «خَلَقَ الله المشيئة بنفسها، ثُمَّ خَلَقَ الأشياء بالمشيئة»^(٣).

ذكر الشيخ المجلسي في البحار خمسة وجوه لبيان الغموض في هذه الرواية، وقد

(١) ابن نما الحلي، محمد بن جعفر، مثير الأحزان: ص ٧١.

(٢) ابن طائوس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٢٠١.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١١٠.

رَجَّحَ الوجه الأوَّل؛ حيث قال: «هذا الخبر الذي هو من غوامض الأخبار، يحتمل وجوهاً من التأويل:

الأوَّل: أن لا يكون المراد بالمشيئة الإرادة، بل إحدى مراتب التقديرات التي اقتضت الحكمة جعلها من أسباب وجود الشيء، كالتقدير في اللوح مثلاً والإثبات فيه، فإنَّ اللوح وما أُثِّبَ فيه لم يحصل بتقدير آخر في لوح سوى ذلك اللوح، وإنما وُجد سائر الأشياء بما قُدِّر في ذلك اللوح، وربما يلوح هذا المعنى من بعض الأخبار... وعلى هذا المعنى؛ يُحتمل أن يكون الخلق بمعنى التقدير». إلى أن قال: «والأوفق بأصولنا هو الوجه الأوَّل»^(١).

فالمشيئة هي مصدر الشيء وعَلَّتْه، وبالمشيئة وُجِدَت الأشياء، لا أنَّ المشيئة هي ذلك الشيء الموجود^(٢)، وهو واضحٌ من قول الصادق عليه السلام: «خَلَقَ الأشياءَ بالمشيئة». أمَّا قوله عليه السلام: «خَلَقَ الله المشيئة بنفسها». فهو يدلُّ على أنَّ المشيئة أوَّل خلقٍ ابتدعه الله تعالى، والابتداع غير الخلق، فالابتداع: خلق شيءٍ لا من شيء. والخلق: خلق شيءٍ من شيء. فالمشيئة مخلوقةٌ بنفسها وليس من شيءٍ آخر، فهي الخلق الأوَّل، وسائر الأشياء مخلوقةٌ بالمشيئة، كما ورد عن الرضا عليه السلام: «يا يونس، تَعْلَمُ ما المشيئة؟ قلت: لا. قال: هي الذكر الأوَّل»^(٣).

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤، ص ١٤٥.

(٢) وقع الخلاف في أنَّ المشيئة هل هي مصدر ميمي، أو أنَّها مصدر بمعنى الاسم؟ والفرق بين كونها مصدراً أو اسماً: أنَّ المصدر يدلُّ على أصل العملية؛ أي: إنَّ المشيئة هي مَنْ جعلت الأشياء تكون أشياء، وقبل ذلك لم تكن شيئاً.

أمَّا الاسم فيدلُّ على الحالة التي نشأت بتأثير هذه العملية؛ أي: إنَّ المشيئة هي ذلك الشيء الموجود. وكونها مصدراً أقرب؛ لأنَّ المصدر يدلُّ على صنع الشيء وفعله، والاسم هو ذلك الشيء المتحقَّق وجوداً، فنقول: شاء ذلك؛ أي: أوجده وصيَّره شيئاً موجوداً، لا أنَّ المشيئة هو ذلك الشيء الموجود، كما سيأتي بيان ذلك في روايات أهل البيت عليه السلام.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٥٨.



وربَّ قائلٍ يقول: إنَّنا نلحظ روايات متعدّدة ذكرت الخلق الأوّل، أو أوّل الخلق الذي ابتدعه الله تعالى، كاللوح، والقلم، ونور نبيّنا محمد ﷺ، وغير ذلك، فهل المشيئة غير ذلك؟ وبالتالي كيف تكون كلّها مخلوقة أوّلاً مع تعدّدها؟

فنقول: إنّ الروايات تُشير إلى حقيقة واحدة، وهذه الحقيقة لها اعتبارات وحيثيات، فسُمّيت طبقاً لاعتباراتها، فالحقيقة سُمّيت مشيئة باعتبار أنّها علّة إيجاد الأشياء، كما أشارت إلى ذلك رواية الإمام الصادق عليه السلام.

أمّا قول بعض المحقّقين من أنّ المشيئة صفة أزلية للذات، أو أنّ المشيئة التي هي مصدر الأشياء وعلّتها الأولى، وأنّ هذه المشيئة كائنة بمشيئة أزلية، وهي المشيئة في مقام الذات، فهي إشارة إلى العلم في مقام الذات، ولا يمكن أن نقول: إنّ الله مشيئة أزليّة، فنُثبت صفةً أزليّةً غير العلم والقدرة والحياة؛ وذلك لعدّة وجوه نذكر منها:

الأوّل: وردت روايات جاء فيها حدوث المشيئة لا قديمها وأزليّتها، منها:

ما ورد في الكافي عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «المشيئة محدّثة»^(١).

وفي التوحيد عن سليمان بن جعفر الجعفري، قال: قال الرضا عليه السلام: «المشيئة والإرادة

من صفات الأفعال، فمنّ زعم أنّ الله تعالى لم يزل مريداً شائئاً فليس بموحّد»^(٢).

ولم ترد روايات تتحدّث عن المشيئة في مقام الذات، بل ورد أنّ ما يكون سابقاً على المشيئة هو العلم، كما في رواية عن معلّى بن محمد، قال: سئل العالم عليه السلام كيف علم الله؟ قال: «علِمَ، وشاء، وأراد، وقدّر، وقضى، وأبدى، فأَمْضَى ما قَضَى، وقضى ما قدّر، وقدّر ما أراد، فبعلمه كانت المشيئة، وبمشيئته كانت الإرادة، وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان القضاء، وبقضائه كان الإمْضاء، فالعلم متقدّم المشيئة، والمشيئة ثانية، والإرادة ثالثة، والتقدير واقعٌ على القضاء بالإمْضاء، فله تبارك وتعالى البدء فيما علم متى شاء، وفيما

(١) المصدر السابق: ج ١، ص ١١٠.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، التوحيد: ص ٣٣٨.

أراد لتقدير الأشياء، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء، فالعلم بالمعلوم قبل كونه، والمشية في المنشأ قبل عينه، والإرادة في المراد قبل قيامه...»^(١).

الثاني: إن من شأن المشيئة التبدل والتغير، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢).

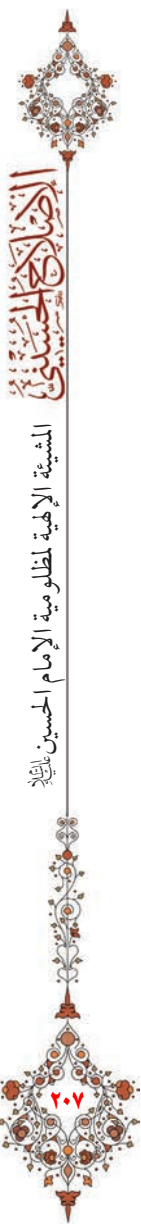
وهذا محال بالنسبة إلى الذات، إضافةً إلى أن المشيئة هي تقدير عالم الإمكان؛ وبهذا المعنى فكل شيء ينتهي إلى المشيئة كما بدأ منها، ولا نستطيع أن نفهم شأنيّة معينة للذات لم تصدر منها، فهي ممّا استأثر الله به عنده وشأن عالم الإمكان في مشيئة الله الحادثة؛ لأنّها علّة الأشياء، وما هو خارج عن هذا التقدير فليس لعالم الممكنات فيه شأن.

الثالث: إن ما يُصطلح عليه بالمشيئة الأزلية هو في الحقيقة العلم الذي هو عين ذاته تعالى كما هو محقق، وهذا العلم ليس مشيئة؛ لأنّ المشيئة هي تقدير عالم الإمكان، وهذا هو معنى قوله ﷺ: «خَلَقَ اللَّهُ الْمَشِيئَةَ بِنَفْسِهَا». لا أن المشيئة مخلوقة بمشيئة ذاتية أو أزلية؛ لأنّه يلزم التسلسل، كما ذكر الشيخ المجلسي ذلك بقوله: «إنّه لما كان ههنا مظنة شبهة، هي أنّه: إن كان الله ﷻ خلق الأشياء بالمشيئة فبِمَ خلق المشيئة؟ أَمْ بِمَشِيئَةٍ أُخْرَى؟ فيلزم أن تكون قبل كلّ مشيئة مشيئة إلى ما لا نهاية له، فأفاد الإمام ﷺ: أن الأشياء مخلوقة بالمشيئة، وأمّا المشيئة نفسها فلا يحتاج خلقها إلى مشيئة أخرى، بل هي مخلوقة بنفسها؛ لأنّها نسبة، وإضافة بين الشائي والمشيء، تتحصّل بوجوديهما العيني والعلمي؛ ولذا أضاف خلقها إلى الله سبحانه؛ لأنّ كلا الوجودين له وفيه ومنه، وفي قوله ﷻ: بنفسها. دون أن يقول: بنفسه. إشارة لطيفة إلى ذلك، نظير ذلك ما يُقال: إنّ الأشياء إنّما توجد بالوجود، فأما الوجود نفسه فلا يفتقر إلى وجود آخر، بل إنّما يوجد بنفسه»^(٣).

(١) المصدر السابق: ص ٣٣٤.

(٢) الرعد: آية ٣٩.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤، ص ١٤٦.



أما وجه التفريق بين المشيئة والإرادة: فإنَّ الشيخ المجلسي وإن احتمل هذا الأمر ولم يقطع، وتبنّى هذا الاحتمال في قوله: «الأوفق بأصولنا». إلّا أنَّ الفرق واضحٌ، فالمشيئة مرتبة سابقة على الإرادة، كما أنَّ متعلّق المشيئة غير متعلّق الإرادة، فالمشيئة متعلّقة بالموجود بها هو موجود في علم الله تعالى، فتعلّق المشيئة به بصيرّه على نحوٍ من الوجود التفصيلي، هذا الوجود الذي يجعله قابلاً لأن يكون بأمره تعالى، أو قل: إنَّ اختيار الشيء الموجود في علم الله تعالى يُصيرّه شيئاً معلوماً تفصيلاً، وهو معنى الاهتمام بالشيء، أو ابتداء الفعل، كما في الروايات التي وردت في تعريف المشيئة، ثمَّ تتعلّق به الإرادة على نحو الإيجاد الفعلي، فهناك مرتبة سابقة على المشيئة وهي العلم، ووجود الأشياء في علم الله تعالى إجمالي لا تفصيلي؛ أي: إنّه بسيط، والبساطة ليست من شأن المشيئة؛ لأنَّ المشيئة مركّبة لتعلّقها بالأشياء، أو بعالم الإمكان، فالمشيئة هي الوجود العلمي التفصيلي للأشياء، وهذا الوجود على نحو الكلّي لا الجزئي، وما ينفذ إلى مرحلة الإيجاد هو الجزئي، وإلى ذلك تُشير الآية: ﴿وإنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾^(١).

فالخزائن هي مشيئته تعالى، والتنزيل إرادته؛ لأنَّ الإرادة من الله تعالى هي نفس الفعل والإحداث، لا الشوق أو الرغبة أو الحب - تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً - كما ورد عن الرضا عليه السلام عندما سُئل عن الإرادة من الله ومن المخلوق، قال: «الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل، وأمّا من الله ﷻ فإرادته إحداثه لا غير ذلك؛ لأنّه لا يروي، ولا يهم، ولا يتفكّر، وهذه الصفات منفيّة عنه، وهي من صفات الخلق، فإرادة الله هي الفعل لا غير ذلك»^(٢).

أقسام المشيئة

لا شكّ في أنَّ من المرتكز في الأذهان هو تعدّد الإرادة الإلهية إلى تكوينية وتشريعية،

(١) الحجر: آية ٢١.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، التوحيد: ص ١٤٧.

ومحلّ اختيار العبد هو الإرادة التشريعية، أمّا الإرادة التكوينية فتارة تكون ابتدائية، وتارة تكون أفعال العباد متوقّفة عليها.

والسؤال الذي يمكن أن نطرحه: هل الله تعالى مشيئتان كما في الإرادة، والمشيئة الأولى ثابتة وحتمية، والثانية غير حتمية، بل متعلّقة بأفعال العباد؟

والجواب عن هذا السؤال: إنّ المشيئة الإلهية هي كذلك تنقسم على قسمين: الأولى حتمية والثانية غير حتمية، أي: إنّها مشيئة متوقّفة على أفعال العباد؛ والدليل على ذلك ما ورد عن الرضا عليه السلام، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: «إنّ لله إرادتين ومشيتين: إرادة حتم وإرادة عزم، ينهى وهو يشاء ويأمر وهو لا يشاء، أو ما رأيت أنّه نهى آدم وزوجته أن يأكلا من الشجرة وشاء ذلك، ولو لم يشأ أن يأكلا لما غلبت مشيئتهما مشيئة الله تعالى»^(١).

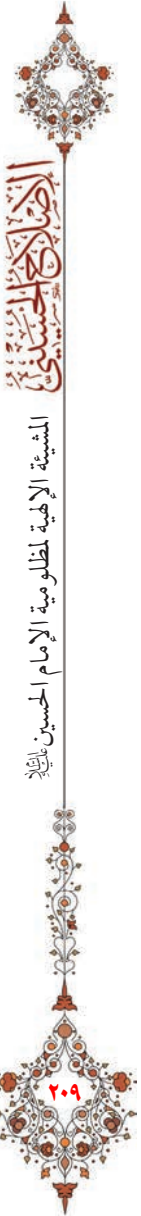
فالمشيئة كالإرادة تارة حتمية أو تكوينية، وأخرى غير حتمية؛ بمعنى أنّ للعبد احتمالات متعدّدة كلّها واقعة في هذه المشيئة، ويثبت منها ما كان واقعاً في المشيئة الحتمية، ويُطلَق عليها مشيئة العلم، ويُطلَق على الحتمية مشيئة الأمر، كما ورد في البحار قوله: «ويؤيّد ذلك ما حكي عن الفقه الرضوي من أنّه عليه السلام قال: قد شاء الله من عباده المعصية وما أراد، وشاء الطاعة وأراد منهم؛ لأنّ المشيئة مشيئة الأمر ومشية العلم، وإرادته إرادة الرضا وإرادة الأمر، أمر بالطاعة ورضي بها، وشاء المعصية - يعني علم من عباده المعصية - ولم يأمرهم بها»^(٢).

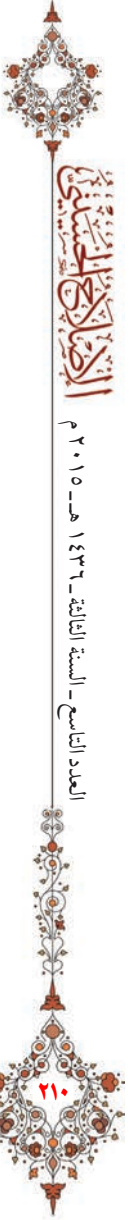
ويمكن القول: إنّ الإرادة إذا كانت حتمية باعتبار أنّ المشيئة كذلك؛ لأنّ الإرادة بعد المشيئة، فالمشيئة حتمية، وإذا كانت الإرادة على نحو العزيمة لا الحتمية؛ أي: إنّ الله تعالى ينفذ بإرادته أفعال العباد، فهي بذلك تكون أيضاً طبقاً للمشيئة الإلهية، وهي مشيئة العلم.

كذلك هذا الأمر يجري في القدر والقضاء، أمّا القدر فإنّ الله تعالى قدّر أشياء تقديرًا

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٥١.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤، هامش ص ١٣٩.





حتمياً أو تكوينياً، كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَهُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾^(١)، وأخرى قدّر أشياء بما هي معلقة على فعل العبد، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنْ الْغَيْرِ﴾^(٢). فامرأة لوط قد استحققت هذا التقدير؛ لأنه من أسباب تسويل نفسها الأمانة بالسوء، وركونها إلى ما يفعل قوم لوط، ولم تتبع لوطاً عليه السلام في دعوته، فاستحققت هذا التقدير. والقضاء كذلك، فمن القضاء ما للعبد فيه الاختيار، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٣).

وتارة يكون القضاء حتمياً أو تكوينياً وليس للعبد أن يخالفه كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤).

فالمشيئة تارة تكون على نحو الاختيار الحتمي من الله تعالى المستلزم للإرادة أو الأمر الإلهي، وأخرى على نحو العلم بالفعل الصادر من العبد، إلا أن هذا الفعل وفي كل مرتبة من مراتب وجوده، سواء كان موافقاً لما هو فيه مختاراً أو مخالفاً، فهو متوقف على ما هو حتمي أو تكويني من المشيئة والإرادة، وإلى ذلك يشير العلامة الطباطبائي بقوله: «وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾^(٥)، إلى غير ذلك، لإرادتنا ومشيتنا إذا تحققت فينا فهي مرادة بإرادة الله ومشيتته لها، وكذا أفعالنا مُراداة له تعالى من طريق إرادتنا ومشيتنا بالواسطة، وهما - أعني: الإرادة والفعل - جميعاً متوقفان على أمر الله سبحانه، وكلمة (كُنْ)»^(٦).

(١) الواقعة: آية ٦٠.

(٢) الحجر: آية ٦٠.

(٣) الإسراء: آية ٢٣.

(٤) آل عمران: آية ٤٧.

(٥) يونس: آية ٩٩.

(٦) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان: ج ١، ص ٤٣.



المشيئة والإرادة وأفعال العباد

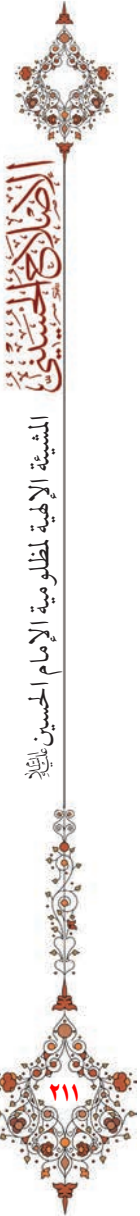
قابلية الموجودات على إحداث الفعل يحتاج إلى أمرين:

الأمر الأول: يتعلّق بنفس الموجود، فلا بدّ له من تصوّر واختيار وقدرة واستطاعة على الفعل، كما في الحديث القدسي المروي عن الرضا عليه السلام: «قال أبو الحسن الرضا عليه السلام، قال الله: يا بن آدم، بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أديت فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سميعاً بصيراً قوياً، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذاك أيّ أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، وذاك أنّي لا أسأل عمّا أفعل وهم يُسألون»^(١). فالله تعالى أودع في المخلوقات الاختيار والقدرة على الفعل، وهذه القدرة هي علّة إرادة المخلوقات.

الأمر الثاني: إنّ هذه الإرادة محكومة بالمشيئة والإرادة الإلهية، فإنّ الأفعال تحتاج أيضاً إلى إذن إلهي بالحدوث، فالفعل الذي يصدر من الموجودات والمقدّر له بمشيئة الله تعالى بالحدوث، فهو كائن، فإذا كان فعل العبد مطابقاً للمشيئة الإلهية، وإنّ الله تعالى قد اختاره بمشيئته، فإنّه تعالى ينفّذه بإرادته التكوينية، بعد تعلّق إرادة العبد به؛ لأنّه لا يخالف التخطيط العام للكون، والعبد في موقع الاختيار لهذا الفعل، أمّا إذا كان فعله مخالفاً للمشيئة الإلهية فإنّ إرادته تتعارض مع إرادة الله تعالى؛ لأنّ إرادته تعالى طيقاً لمشيئته، فيضع الله تعالى الموانع لتحقيق هذا الفعل، كما يقول تعالى: ﴿يَمَعُشَرِ الْجَنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ اسْتَمَعْنَاهُمْ أَنْ تَقُولُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَإِذَا تَنَادَّوْا رَأَوْا كَمَا تَكْذِبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابُ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنفِرَانِ﴾^(٢). وهذه الآية تُشير إلى طبيعة الموانع التي يضعها الله تعالى أمام مشيئة من يريد النفاذ وإرادته، وعدم توافر الشرط

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٥٢.

(٢) الرحمن: آية ٣٣-٣٥.



الأول عند المخلوق لا يعني تخلفه إذا كان حدوثه وتحققه موافقاً لمشئته الله تعالى، فعندها يكون التدخل الإلهي بإيجاده وتحققه الخارج عن قدرة العبد، وهذا التدخل الإلهي لا يكون إلا وفق الحكمة الإلهية، كما في قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١). فالفئة القليلة وإن كانت لها مشيئة واختيار في مقارعة الظلم إلا أنها لا تمتلك القدرة، فالله تعالى يفعل النصر لهم، ولدينا شواهد تاريخية كثيرة، منها: معركة بدر، فالله تعالى شاء وأراد النصر للمؤمنين - طبعاً النصر المشروط كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٢)، فأيدهم بالملائكة. أما في معركة أحد فلم يكن الأمر كذلك؛ لأنهم لم ينصروا الله، بل أرادوا نصر أنفسهم وأطاعهم.

وهذا أيضاً واضح في معركة الأحزاب؛ حيث إن الله تعالى هو من هزم الأحزاب وحده، كما ورد عن النبي ﷺ: «وأخذ بعصاوتي الباب، ثم قال: لا إله إلا الله، أنجز وعده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده»^(٣).

وعلى هذا يتضح أننا أمام ثلاث حيثيات للإرادة الإلهية من جهة فاعليتها في الأشياء حدوثاً:

الأولى: ما هو متعلق بفعل العبد من حيث توقف فعل العبد عليها، فإذا كان فعله طبقاً للمشيئة الإلهية فإن الإرادة الإلهية تمضي له بحسب أسبابه ومسبباته، وأما إذا تعارض مع المشيئة الإلهية فإن الإرادة تضع الموانع لعدم تحققه، والأمران طبقاً لمشيئته تعالى وحكمته، كما في آية نفاذ الجن والإنس إلى أقطار السموات والأرض.

الثانية: ما هو غير متوقف على فعل العبد وإرادته، بل متوقف على نمط إدارة الكون،

(١) البقرة: آية ٢٤٩.

(٢) محمد: آية ٧.

(٣) الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، إعلام الوري بأعلام الهدى: ج ١، ص ٢٢٥.

فالله تعالى يفعل ما يشاء سواء كان للعبد مشيئة وإرادة أم لا، كما هو حال اليتيمين في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(١)، فاليتمان ليس لهما أي فكرة أو اختيار في استخراج الكنز، فضلاً عن أن تكون لهما إرادة.

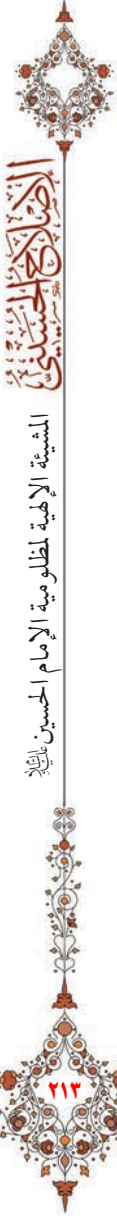
الثالثة: كما أن للإرادة الإلهية حيثية أخرى غير متعلّقة بطبيعة عالم الخلق من حيث الثقل والزمان والمكان، بل هي طبيعة عالم الأمر وهو أمره تعالى ﴿كُنْ﴾، فإننا وإن كنّا نقول: إنّ طبيعة الأوامر الإلهية هي قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. إلا أنّ هذه الأوامر عند نزولها إلى عالم الخلق تتقيّد بقيد الزمان والمكان، وهذا التقيّد بحكمة الله تعالى ومشيئته، لكنّه تعالى في بعض الأوامر الإلهية يرفع هذا القيد، فيحصل نوع اندكالك بين الأمر والخلق؛ لحكمته في بيان عظّمته والدلالة على وجوده تعالى؛ لأنّها أبلغ في النفس ممّا لو تقيّدت بقيود عالم الخلق، وهما: (الخلق والأمر) بيد الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

ومن الشواهد القرآنية على هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾^(٣). فالأمر غير موجه إلى أبدانهم؛ لأنّ البدن من عالم الخلق، بل هو موجه إلى حقائقهم أو أرواحهم، التي هي موجودات أمرية، وخاضعة إلى قوله تعالى: ﴿كُنْ﴾. كذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَنْدُرُ كُفًى بِرَدَا وَسَلَمًا عَلَىٰ

(١) الكهف: آية ٨٢.

(٢) الأعراف: آية ٥٤.

(٣) البقرة: آية ٦٥.



إِبْرَاهِيمَ ﴿١﴾. فَإِنَّ مِنْ ذَاتِيَاتِ النَّارِ الْإِحْرَاقَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾. أَي: إِنَّ حَقِيقَتَهَا هِيَ مَنْ تَغَيَّرَتْ، وَلَمْ يَكُنِ الْخُطَابُ مُوجَّهًا إِلَى لَوْنِهَا وَضِيَائِهَا، وَهَذَا تَتَّضِحُ لَنَا حَيْثِيَّةُ أُخْرَى لِلْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُنْ﴾.

فَكُلُّ الْمَوَارِدِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا تَبَيَّنَ أَنَّ الْإِرَادَةَ الْإِلَهِيَّةَ هِيَ الْفَاعِلَةُ طَبَقًا لِلْمَشِئَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْمَشِئَةُ الْإِلَهِيَّةُ هِيَ الْحَاكِمِيَّةُ عَلَى الْإِرَادَةِ؛ لِأَنَّهَا الْخَلْقُ الْأَوَّلُ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِلَّا أَنَّ الْأَوَامِرَ الْإِلَهِيَّةَ هِيَ حَيْثِيَّاتٌ مُخْتَلِفَةٌ، كَمَا بَيَّنَّاهَا.

أسباب المظلومية ونتائجها

المظلومية باعتبارها واقعاً أَذِنَ اللَّهُ بِهِ وَاخْتَارَهُ بِوصفه نظاماً يَمْتَحِنُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عِبَادَهُ، لَهَا أَسْبَابٌ وَنَتَائِجٌ، أَمَّا الْأَسْبَابُ فَيُمْكِنُ الْحَدِيثُ عَنْهَا مِنْ جِهَتَيْنِ:

الجهة الأولى: ما يتعلق بالمظلوم

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ خَلَقَهُمْ لَهْدَفِ عِبَادَتِهِ.

نَعَمْ، هَذِهِ الْعِبَادَةُ لَيْسَتْ بِحَسَبِ الْمَفْهُومِ الشَّائِعِ لِلْعِبَادَةِ، بَلِ الْعِبَادَةُ الْمُحَضَّةُ الَّتِي بِمَعْنَى الطَّاعَةِ لِلَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، أَمَّا الْعِبُودِيَّةُ بِمَفْهُومِهَا الْأَعْمِّ فَهِيَ لَيْسَتْ هَدَفًا الْبَتَّةَ؛ لِأَنَّ الْكُلَّ أَتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا، فَهُوَ خَاضِعٌ قَهْرًا إِلَى حُكُومَةِ اللَّهِ تَعَالَى، أَمَّا الْعِبَادَةُ الَّتِي يَرِيدُهَا اللَّهُ تَعَالَى فَهِيَ الْعِبَادَةُ الَّتِي تَكُونُ بِاخْتِيَارِ الْعَبْدِ، وَهِيَ الطَّاعَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلَّهِ تَعَالَى، لَيْسَ لِكَوْنِهِ يَمْلِكُ جَنَّةً يَسْعُدُ مَنْ دَخَلَهَا، أَوْ يَمْلِكُ نَارًا يَشْقَى مَنْ وَلَجَ فِيهَا، وَبِالتَّالِي تَكُونُ عِبَادَتُهُ سَبْحَانَهُ وَسِيلَةً إِلَى رِضَا أَنْفُسِنَا، سِوَا بَتَحْصِيلِ خَيْرِ الْجَنَّةِ أَوْ الْأَمْنِ مِنْ شَرِّ جَهَنَّمَ، بَلِ عِبَادَتُهُ تَعَالَى كَوْنُهُ أَهْلًا لِلْعِبُودِيَّةِ، وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِقَوْلِهِ: «مَا عِبَدَتُكَ خَوْفًا مِنْ نَارِكَ، وَلَا شَوْقًا إِلَى جَنَّتِكَ، بَلِ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعِبَدْتُكَ»^(٢).

(١) الْأَنْبِيَاءُ: آيَةُ ٦٩.

(٢) ابْنُ أَبِي جَهْمُورٍ الْأَحْسَائِي، مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، عَوَالِي اللَّائِلِي: ج ٢، ص ١١.

والطريق إلى تحصيل العبادة بهذا المعنى لا يمكن إلا من خلال تحقيق مقدمات، ومن هذه المقدمات وأجلها هو الصبر، فالصبر رأس كل عبادة، والعلاقة بينهما مطردة، وأجل صورة للصبر هي في الصبر على البلاء، خاصة إذا كان البلاء يهدد وجود الإنسان، أو ماله، أو كل شيء يعده عزيزاً عنده.

فإن الصبر على البلاء يكون سبباً في صيرورة الإنسان عابداً حقيقياً لله تعالى، كما أشارت إليه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِدِكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ، وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾^(١). فالآية تُشير إلى وضوح العلاقة بين الصبر والعبادة، فكلما كان العبد صابراً كانت عبوديته لله تعالى أوكد وأدق، إلى أن يصل إلى مرحلة العبودية المحضة، ثم إن المظلومية هي أوضح صورة من صور البلاء والامتحان الإلهي، فالإنسان قد يُبتلى بشيء من النقص في الأنفس، أو الأموال، أو الجاه، أو غير ذلك مما يعده ضرورياً في حياته، وهو على هذا الحال بصبره ينال درجات رفيعة عند الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ شَيْءًا مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾^(٢). فالصبر على البلاء علة فيض الرحمة والهداية الإلهية، وهذا أيضاً ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِزِّنَا وَعِلْمَنَهُ مِّنْ لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾^(٣).

فالوصف في الآية الأولى للصابرين، وفي هذه الآية للعابدين، إلا أن النتائج في كلتا الآيتين، وهداية وعلم، والهداية هي العلم الإلهي أو المعرفة الإلهية، ويمكن أن نحتمل أن الصبر هو من يُصير الإنسان عابداً، أو أن العبودية تُصير الإنسان صابراً، فعلى كلا

(١) ص: آية ٤٤.

(٢) البقرة: آية ١٥٥ - ١٥٧.

(٣) الكهف: آية ٦٥.



الاحتمالين فإنَّ العبودية هي الهدف الإلهي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

ويمكن أن نتوسّع في فهم العلاقة بين الرحمة والعلم الإلهي، أو الرحمة والهداية الإلهية، وبين كون الإنسان عابداً لله تعالى ونال درجة العبودية الحقّة بالصبر، فكلمًا كان العبد مهتدياً عالماً رحيماً كان من عباد الله تعالى، وكلمًا كان من عباد الله تعالى كان صابراً على البلاء، فإذا كان العبد ليس محلاً لفيض الرحمة والعلم الإلهي وحسب، بل هو الرحمة، وهو مدينة العلم، كما هو الوصف الذي اختصّ به نبينا محمد ﷺ، فهي دلالة على درجة العبودية، ودرجة صبره على البلاء؛ ولذا ورد عنه ﷺ: «مَا أُوذِيَ أَحَدٌ مِثْلَهَا أُوذِيْتُ فِي اللَّهِ»^(٢).

فكلمًا كان مقدار البلاء عظيماً وكان صابراً محتسباً أمره إلى الله تعالى كان العبد محلاً لرحمة الله تعالى وهداه. فكان الحسين عليه السلام بصبره على ذلك البلاء والامتحان الإلهي سفينة النجاة، وباب الرحمة والهداية الإلهية في الدنيا، وشفيعاً مشفعاً في الآخرة.

الجهة الثانية: ما يتعلق بالظالم

إنَّ من الأسباب والدوافع التي تدفع الإنسان إلى ممارسة الظلم هو سطوة النفس الأمّارة بالسوء، وحبّ التسلّط والجهل، والابتعاد عن جادة الصواب والخير الذي أراده الله تعالى للخلق، والذي بيّنه بتعاليمه المنزّلة على أيدي الأنبياء والرسل، وغيرها من العوامل التي تدفع الإنسان إلى ممارسة الظلم على خلق الله تعالى؛ ظناً منهم أنّ ذلك يُحقّق أهدافهم ومطامعهم في الحياة الدنيا، إلّا أنّهم بعيدون عن حقيقة أنّ الله تعالى أوجد

(١) الذاريات: آية ٥٦.

(٢) الريشهري، محمد، ميزان الحكمة: ج ١، ص ٦٧.

الإنسان في هذه الدار لبيئته، والميزان هو العمل الصالح، يقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

فممارسة الظلم وإن كانت بمشيئة الله وإذنه، إلا أنه امتحان للظالمين، والسنة الإلهية جرت على الخلق، بأن وَصَّعَهُمْ عَلَى مَفْتَرَقَ طَرِيقَيْنِ: طريق التقوى وطريق الفجور، طريق الحق وطريق الباطل، طريق الكفر وطريق الإيثار، وخَوَّلَ عِبَادَهُ فِي الْإِخْتِيَارِ، وهذه هي مشيئته وكلمته التي حَقَّتْ عَلَى عِبَادِهِ؛ لَأَنَّهُ تَعَالَى إِنْ أَوْجَدَ الْإِيثَارَ بِغَيْرِ الْكُفْرِ، وَالْحَقَّ بِغَيْرِ الْبَاطِلِ، فَلَا يَتَحَقَّقُ الْإِيثَارُ الْمُمَحَّصُ النَّقِيُّ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِخَلْقِ الضَّدِّ، وكما قيل: بَأَنَّ الْأَشْيَاءَ تُعَرَفُ بِأَضْدَادِهَا، فَالْكُفْرَ وَالْبَاطِلَ مَا هِيَ إِلَّا أَدَوَاتٌ لِمَحِيصِ الْحَقِّ وَالْإِيثَارِ وَالْعَدْلِ فِي نَفُوسِ الْعِبَادِ، أَمَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْذَنُ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ بِمَا يَفْعَلُونَ فَذَلِكَ إِمْلَاءٌ لَهُمْ لَا غَيْرَ؛ لِأَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا بِأَفْعَالِهِمُ الضَّلَالََةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ يُعَذَّبُ مُمْهِينٌ﴾^(٢).

كذلك يمكن القول: إِنَّ كُلَّ فِعْلٍ قَبِيحٍ يَصْدُرُ مِنَ الْعَبْدِ، وَكُلَّ مَعْصِيَةٍ فَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ بِمَشِئَتِهِ تَعَالَى، إِلَّا أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ اسْتَحَقَّ بِتَسَاوُلِهِ هَذَا الْمَقَامَ، كَذَلِكَ الْهُدَايَةُ، فَهِيَ مَتَوَقَّفَتَانِ عَلَى فِعْلِ الْعَبْدِ، كَمَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

أما النتائج والحكمة الإلهية من إمضائه تعالى بمشيئته للمظلومية والمأساة التي وقعت على أهل البيت عليه السلام بشكل عام، والحسين وأهل بيته وأصحابه عليه السلام بشكل خاص، فنذكر منها:

أولاً: ما يتعلّق بالكمال الخاصّ للفرد، فإنّ الصبر على البلاء وعلى الظلم يُعطي

(١) المُلْك: آية ٢.

(٢) آل عمران: آية ١٧٨.

(٣) آل عمران: آية ٨٦.



نتائج طيبة فيما يخص كمال الأفراد، فإنه بذلك - وعند حصوله على النتائج الطيبة التي تسببت بها المظلومية، مع صبره عليها وثباته، فإنه - كما ذكرنا في النقطة الأولى من أسباب المظلومية - يكون محلاً لفيوض الرحمة والعلم الإلهي، والتي تنعكس بدورها على كماله الخاص؛ ليرتقي في مراتب الكمال والإيمان؛ ولذا ورد: «وإن لك في الجنة درجات، لا تنالها إلا بالشهادة»^(١).

والأكيد أن الدرجات تكون عالية ويستحقها العبد بمقدار صبره واحتساب أمره عند الله تعالى، فنحن نرى الحسين عليه السلام وهو رافعٌ ولده الرضيع بعدما ذبحوه من الوريد إلى الوريد، يقول: «هَوْنٌ عَلَيَّ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بَعِينَ اللَّهِ»^(٢).

نعم، إن تصوّر ما حدث في كربلاء بعد تتبّع الروايات يعطينا تصوّراً مرعباً عن تلك الأحداث، إلا أن الأغرب هو صبر الحسين عليه السلام وثباته، وانقطاعه إلى الله تعالى في كلّ موقفٍ من مواقف كربلاء، وكان لسان حاله يُعبّر عن مدى الحبّ الإلهي الذي ملأ قلبه حتى يكاد لا يرى في كلّ شيء إلا الله تعالى؛ لأنه أحبّ الله، ولأنّه علم أن الله أحبه، فانقطع عن كلّ شيء سواه.

ثانياً: ما يتعلّق بالكمال العام، فإن السّنة الإلهية جرت في أن يكون للناس أسوة في كلّ شيء، حتى أننا نرى أن القرآن قد قصّ علينا قصص الأنبياء والرسل وأحوالهم، وما عانوا وتحملوا من أجل الدين والحق، وكذلك أحوال الأمم التي لم تؤمن بالله تعالى، وما جاء به أنبياءه ورسله؛ لتكون هذه القصص عبرة للإنسان في أن يرسم طريقه ويحدّد هدفه في الحياة، وهي رحمة إلهية لتخفيف المؤونة على الإنسان في أن يجعل له مثلاً يقتدي به، ويختصر خوض التجارب، للوصول إلى ما هو صواب وعليه أتباعه والتمسك به، وما هو بعيد عن الحقيقة ليتجنّب ويبتعد عنه، حتى أننا نرى أن أحوال الأنبياء قد

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤، ص ٣١٣.

(٢) المصدر السابق: ج ٤٥، ص ٤٦.

اختلفت، وقصصهم قد تنوّعت؛ لتكون لنا في قصصهم عبرة شاملة لكل الأحوال، سواء على صعيد النفس وتهذيبها، أم على مستوى الصبر على البلاء ونتائجه الطيبة، أم على مستوى الأمور العقّدية والإيمان بوجود الحقّ تبارك وتعالى، وعبادته وحده؛ كونه أهلاً للعبادة دون غيره، أو على مستوى الوقوف في وجه الظالمين والتوكّل على الله تعالى، وغير ذلك ممّا ذكرته آيات الذكر الحكيم، فمشيئته اقتضت أن يُرينا الأسوة الحسنة من عباده المقربين؛ لتكون أحوالهم مناراً يضيء لنا طريقنا في هذا الوجود.

فكانت مظلومية الإمام الحسين (عليه السلام) المثل الأعلى عند الله تعالى إلى الناس في الصبر على البلاء، وتحمل أعباء مسؤولية الحفاظ على الدين، فما تضمّنته هذه المظلومية والمأساة من دروس وعبر كانت سبباً من أسباب إحيائها إلى هذا اليوم؛ لأنّها عطاء روحى لا ينفد، لا لأنّ المشيئة الإلهية اقتضت خلودها وحسب، بل كونها تمثّل أروع ما يمكن أن يُقدّمه الإنسان من تضحية في سبيل إحياء الدين، فعلى الرغم من شدّة ما جرى على الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته، فإنّنا نراه وأهل بيته وأصحابه وقفوا موقف الثبات والصبر والإقدام، على أن لا مساومة على حساب دين الله تعالى، وبالتالي زرع في نفوس المؤمنين الاستعداد لبذل الغالي والنفيس من أجل الدين والهدف الإلهي.

«إنّ مظلومية أبي عبد الله (عليه السلام) وغيره من الأئمة تضع الشيعة دوماً على طريق مقارعة الظلم، والاستعداد للبذل والتضحية بين المنتقم لدماء الشهداء المظلومين في كربلاء، ألا وهو المهدي المنتظر (عليه السلام)، ويكرّس كراهية الظالمين في نفوسهم»^(١).

ثالثاً: إنّ ما يُصطلح عليه بالمظلومية فهي ما كان من العباد وليس من الله تعالى، وإن كان الله تعالى أنفذها بإرادته فعلاً وبمشيئته اختياراً، إلّا أنّ ذلك الفعل - وكما أوضحنا - واقع تحت اختيار العبد؛ لأنّ الظلم ليس من إرادة الله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ

(١) محدّثي، جواد، موسوعة عاشوراء: ص ٦٥٦.

بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ^(١). وما كان من الله تعالى هو عدم المانع ليس إلا، فهو واقعٌ باختيار بني أمية ومن وقف وراءهم، وإن كان بإرادة الله التكوينية ومشيئته، إلا أنه لم يرضه لعباده، ولم يحبّه، كما ورد عن الفضيل، عن الصادق عليه السلام: «وسمعتَه يقول: شاء وأراد، ولم يُحبّ ولم يرضَ، شاء أن لا يكون في ملكه شيء إلا بعلمه، وأراد مثل ذلك، ولم يُحبّ أن يُقال له: ثالث ثلاثة، ولم يرضَ لعباده الكفر» ^(٢).

فليس كلّ ما أَرادَه الله تعالى أحبّه ورضيَ به، بل يؤخّرهم إلى يوم الحساب، ويُملي للظالمين ويزيدهم؛ لأنّهم قد استحقّوا بأفعالهم هذه الضلالة من الله تعالى، فالله تعالى لا يريد الظلم للعباد، وهو غير ظالمٍ لهم.

وعليه؛ يمكن أن نطرح السؤال التالي: ما هي الإرادة الحقيقية لله تعالى لهذه المظلومية والمأساة؟ فإنّنا نلاحظ أنّ الإنسان قد يحكم على الأشياء من خلال ظواهرها، ولا يعلم الحكمة منها؛ ولذا ورد في قوله تعالى: **﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرَأُ رِيدَ يَمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾** ^(٣).

فالحكمة الإلهية لهذا البلاء والامتحان الإلهي قد ذكرها الله تعالى في قوله: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾** ^(٤). فهذا هو المراد الحقيقي لله تعالى؛ ليذهب عنهم كلّ شكّ في سبب الحبوّة التي خصّهم الله تعالى بها، بهذا البلاء وهذا الامتحان في دار الدنيا أو الآخرة.

وبالتالي: فإنّ المشيئة الإلهية لهذه المظلومية والمأساة، أو لقتل الحسين عليه السلام إنّما سُميت بذلك لأنّ القتل والمظلومية هي الفعل، وهي الإرادة من الله تعالى، وتعني - كما قلنا -:

(١) آل عمران: آية ١٠٨.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٥، ص ٥١.

(٣) الجن: آية ١٠.

(٤) الأحزاب: آية ٣٣.

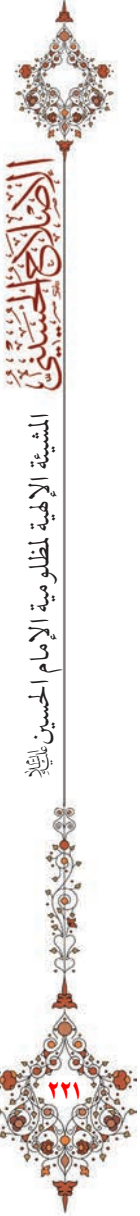
عدم المانع، أمّا المشيئة الإلهية فهي ما تحقّق فعلاً وتعيّن، فهل الذي تعيّن هو مظلومية الإمام الحسين عليه السلام وقتله وسبي عياله أو أنّ الذي تحقّق فعلاً هو أنّ الله تعالى أذهب عنهم الرجس والشكّ وكرّمهم، ورفع شأنهم، وجعلهم وسيلته إليه، ومنازلاً للناس يقتدون بهم ويؤمنون بمبادئهم؟ كما هو المشهور عن المهاتما غاندي قوله: «تعلمتُ من الحسين كيف أكون مظلوماً فانتصر».

المشيئة الإلهية ومظلومية الإمام الحسين عليه السلام

بعد أن كوّنّا مفهوماً يسعفنا في قراءة طبيعة حركة الإمام الحسين عليه السلام، وهل الإمام الحسين عليه السلام كان قد سار إلى مقتله؛ لأنّه يعلم بأنّه مقتول، وأنّه لا بدّ من أن ينجز ما عليه؛ لأنّ المشيئة الإلهية اقتضت ذلك، والنتائج المترتبة على قتله هي الهدف الحقيقي الذي لا يمكن تحقيقه إلّا بدمائه الطاهرة، أو أنّ الإمام الحسين كان أمام خيارات متعدّدة طبقاً للمشيئة الإلهية؟ كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١). لكنّ الظروف لم تُسعف الحسين عليه السلام نحو تحقيق أهدافه السياسية، بل كانت الأسباب أدّت إلى تلك النتيجة المأساوية، وهذا ما ثبت في مشيئة الله تعالى، وهذه النتيجة بحدّ ذاتها لا تخلو من أهداف واقعية ساهمت وبشكل كبير في خلق الاستعداد في نفوس المؤمنين، للوقوف ضدّ الظلم والطغيان، وأحيث فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتضحية بالنفس والمال والعيال من أجل إحياء دين الله تعالى. وبهذا، فنحن بين الشدّ والجذب، بين من ذهب إلى الاحتمال الأوّل^(٢)، ومن ذهب إلى تبني الاحتمال الثاني الذي ذكرناه.

(١) الرعد: آية ٣٩.

(٢) وهذا ما نجده واضحاً وجلياً في بعض مؤلّفات من كتبوا في واقعة الطف: «وإنّ الله سبحانه وتعالى قد عهد للإمام الحسين عليه السلام، وأمره عن طريق النبي ﷺ بتنفيذ مشروع ينتهي باستشهاده واستشهاد من معه». الحكيم، محمد سعيد، فاجعة الطف: ص ١٤.



ويعزو الشيخ قيصر التميمي إلى أن من تبنى الاحتمال الأول في رؤيته لواقعة الطف يعود إلى أسباب وإشكاليات عقدية وتاريخية وغيرها، أجاب عنها في بحثه الموسوم: (الأسباب والمبررات العقدية والتراثية للتفريط بالأهداف والمبادئ السياسية للنهضة الحسينية)^(١)، ومن جملة الردود على هذه الرؤية قوله: «والحاصل أن المشيئة الإلهية الفعلية التي أخبر عنها الإمام الحسين عليه السلام لا تغلق الأبواب أمام إمكانية تحقيق النصر العسكري، ولا تلغي الأمل والرجاء في إصلاح الأمة، وإسقاط الحكومة الظالمة، وإقامة حكومة إسلامية عادلة بديلة عنها؛ ولذا خرج الحسين عليه السلام بأمل ورجاء تحقيق وإنجاز تلك الأهداف والمصالح والغايات السامية... ينبغي أن نُميّز بين النصوص الصادرة في أوائل أيام النهضة، وبين ما صدر في نهايتها، حينما أصبح الإمام الحسين عليه السلام على مشارف الكوفة، وبعد انقلاب أهلها؛ لأن ما صدر في الأيام الأخيرة كان أقرب إلى الشهادة من النصر، وجملة من النصوص التي ذكرت هذه الإشكالية هي من نصوص الأيام واللحظات الأخيرة للنهضة»^(٢).

والحق أن هذا الإشكال قائم؛ لأننا أمام نصوص وعبارات تؤيد الطرفين، إلا أن الجمع بينهما هو الحل الأنسب، فالإمام الحسين عليه السلام باعتباره إماماً معصوماً مفترض الطاعة، ومكلفاً أمام الله تعالى أيضاً، فعليه أن يؤدي تكليفه الواقعي مهما كانت النتائج، فإذا كان تكليفه هو القتل من أجل الدين، وفي هذا القتل يكون قد حقق نتائج عظيمة، وإنها الذي حصل هو الهداية والرعاية للبشر دينياً ومعنوياً وإنسانياً بمقتله وشهادته سلام الله عليه؛ إذ أعطى المثال الأعظم للتضحية الضخمة بهذا الصدد، فكان النبراس

(١) التميمي، قيصر، الأسباب والمبررات العقدية والتراثية للتفريط بالأهداف والمبادئ السياسية للنهضة الحسينية، مقال التحرير في مجلة الإصلاح الحسيني: العدد ٤، ص ١١.

(٢) المصدر السابق: العدد ٤، ص ٣٧-٣٨.

الأفضل الذي يُضيء للأجيال طريقهم باستمرار، وإلى يوم القيامة»^(١). أو كان تكليفه طبقاً للقواعد الإسلامية العامة، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطلب الإصلاح، وهذا ما تحقق أيضاً بخروجه عليه السلام، إمّا بإقامة الحكومة الإسلامية العادلة، فإنّ هذا الأمر وإن لم يتحقق في زمانه إلّا أنّه هدف إلهي على المرء أن يسعى إليه وأن يطلبه، سواء تحقّق على يديه أم على يد الأجيال التي تليه، فهو بهذا يكون قد شارك فعلاً في تحقيق هذا الهدف، ولا تنافي بين مقتله وهذا الهدف، بل يمكن القول: إنّ حلم الأنبياء كان في تحقيق هذا الهدف، وتحقيقه على يد الإمام المهدي عليه السلام لا يعني حصر أسبابه في فترة ما قبل الظهور أو بعده، بل نستطيع القول: إنّ من نتائج تلك التضحيات التي كانت على أيدي الأنبياء والأولياء - والحسين عليه السلام منهم - تأكيد هذا الهدف، فإلى اليوم أضحت تضحيته تقدّم لنا الأمل بقيام دولة العدل الإلهي، وإلى ذلك يُشير قوله تعالى:

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٢).

والإشكالية القائمة في تصوّر أهداف الإمام الحسين عليه السلام، وما هو مرتكز عنده، هي ما أشار إليها أصحاب الاحتمال الثاني، إلّا أنّ تعذّر ذلك وعلمه المسبق يقطع الطريق أمام من تبنّى الاحتمال الثاني، سواء أكان علمه عن طريق جدّه، أو عن طريق آخر، باعتبار أنّه كان يعلم بمصيره المحتوم، سواء بعلمه اللدنيّ أم بواسطة قراءته لمُجريات الأمور، وهذا ما أشار إليه عليه السلام في بعض أقواله ومنها: «وايم الله، لو كنتُ في جحر هامةٍ من هذه الهوام لا استخرجوني حتى يقتلوني، والله! ليعتدنّ عليّ كما اعتدتُ إليهود في السبت، والله! لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقه من جوفي»^(٣).

فالمشيئة الإلهية اقتضت أن تكون تلك المظلومية للإمام الحسين عليه السلام، وهو عالم بأنّه

(١) الصدر، محمد، أضواء على ثورة الإمام الحسين عليه السلام: ص ٩٧.

(٢) المجادلة: آية ٢١.

(٣) الأمين، محسن، لوايع الأشجان: ص ٧٢.

مقتول، وشاء الله ذلك، بمعنى أنه تعالى أذن به وشاء للقتل أن يحصل، ولكنه بتدبير بني أمية ومن يقف خلفهم، لكن جهلهم وعلم الإمام الحسين عليه السلام بالحكمة الإلهية لهذه المظلومية جعلته يسلك الطريق الأمثل لتحقيق النتائج المطلوبة من هذه المظلومية، وهذا ما دلّ عليه كلامه عليه السلام مع محمد بن الحنفية: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما فارقتك، فقال: يا حسين، أخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً. فقال محمد بن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك، وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟ قال: فقال [لي عليه السلام]: إن الله قد شاء أن يراهن سبايا»^(١).

اشترك العيال في المظلومية والمأساة

نعرض هنا ما حلّ بعيال الحسين عليه السلام واشتراكهم في المظلومية والمأساة، وجريان الأحداث وما تضمّنته من مأساة وقتل وأحداث أليمة أمام أعينهم، والوحدة التي عاشوها بعد غياب الرجال، والممارسات الوحشية لجيش بني أمية مع الأطفال والنساء، ثم أخذهم سبايا أمام الملاء إلى قصر عبيد الله بن زياد، ومحاولات ابن زياد للتشويش على فعلته النكراء، وما يترتب على ذلك من مسؤولية تجاه علي بن الحسين عليه السلام، أو عمته العقيلة زينب عليها السلام، ومحاولة ابن زياد قتل علي بن الحسين عليه السلام، وكيف تمسّكت به عمته زينب، وغيرها من الأحداث - التي يطول المقام بنا عند عرضها - حتى وصولهم إلى المدينة، وجلوس زينب ومن معها من الأطفال والنساء، والديار خالية من أوليائهم الذين خلفوهم على رمضاء كربلاء صرعى كالأضاحي.

فهذه الأحداث - مع ما لم نورد - تكفي في بيان أن العيال كانوا ممن شاركوا الحسين عليه السلام في هذه المظلومية والمأساة، وهي في الوقت الذي تزيد حجم المظلومية والابتلاء على الإمام الحسين عليه السلام، باعتباره صاحب المسؤولية المباشرة عليهم، فهم أيضاً قد تحمّلوا عبئاً كبيراً من

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٦٤.

الابتلاء والمظلومية التي امتحنهم بها الله تعالى، لِيَعْلَمَ صبرهم وطاعتهم وتسليمهم لأمره، قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

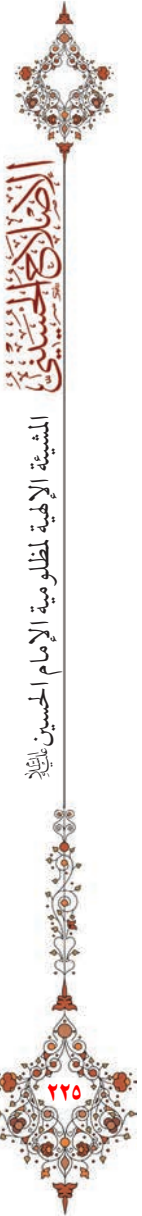
أمّا مقدار الصبر - على الرغم من عظم البلاء الذي مُنيت به العيال - فإنّ الإمام الحسين (عليه السلام) كان حريصاً على بيان هذا الثبات، فهو (عليه السلام) وفي أحلك الظروف وزينب (عليها السلام) تنظر إلى أهل بيته وأصحابه قد توسّدوا غفير الأرض مضرّجين بدمائهم، وهي في هذا الحال إلّا أنّها ترى أخاها شاخصاً أمام ناظرها، وهذا ما يهون الخطب، إلّا أنّ هذا الأمر لم يستمر، فنرى أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) لما أراد أن يتقدّم إلى القتال نظر يميناً وهو يقول: «ألا هل من يُقدّم لي جوادي؟». فسمعت زينب (عليها السلام)، فخرجت وأخذت بعنان الجواد وأقبلت إليه وهي تقول: «لن تنادي وقد قرحت فؤادي» (٢).

فهو (عليه السلام) قد امتحن أخته وعياله؛ ووجدهم صابرين محتسبين، ففي تقديمها الجواد لأخيها دلالة واضحة على صبرها وثباتها، وهو (عليه السلام) قد امتحن أصحابه قبل ذلك، حيث ورد: «وجمع الحسين (عليه السلام) أصحابه وحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أمّا بعد، فإنّي لا أعلم لي أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني [جميعاً] خيراً، ألا وإنّي قد أذنت لكم فانطلقوا أنتم في حلّ، ليس عليكم منّي ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً. فقال له إخوته وأبناءؤه وأبناء عبد الله بن جعفر: ولم نفعل ذلك لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك. وبدأهم العباس أخوه ثمّ تابعوه، وقال لبني مسلم بن عقيل: حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم، اذهبوا فقد أذنت لكم فقالوا: لا والله، لا نفارقك أبداً حتى نفيك بأسيا فانا ونقتل بين يديك» (٣).

(١) آل عمران: آية ١٤٠.

(٢) الحائري، محمد مهدي، معالي السبطين: ج ٢، ص ٢٧.

(٣) ابن نما الحلّي، محمد بن جعفر، مثير الأحران: ص ٥٢.





فهذه الروايات وغيرها لها دلالة واضحة على أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يمتحن أصحابه، ويرى مدى صبرهم وثباتهم أمام قرع السيوف وتهاوت الحتوف، فهم مع تلك المأساة والصعاب، إلّا أنّهم يتلذذون بالموت كما يتلذذ الطفل بلبن أمّه. وهناك روايات كثيرة بيّنت تلك المواقف العظيمة لهذه الفئة المؤمنة.

أمّا العيال ومشية الله تعالى في سبيها، فإنّنا نحتمل عدّة احتمالات قد تكون كلّها صحيحة وفقاً لمجريات الأحداث:

الأطروحة الأولى: إنّ هذه الواقعة أراد الله تعالى لها أن تكون أعظم تضحية من أجل الدين، وهذه العظمة لا يمكن أن تكون إلّا مع استيعاب كلّ ما هو محتمل أن يدخل تحت عنوان التضحية بالعيال، وما جرى عليهم من السبي داخل تحت هذا العنوان أكيداً.

الأطروحة الثانية: إنّ من حملهم الإمام الحسين عليه السلام من العيال قد استحقّوا أن ينالوا هذه المرتبة العظيمة، بعد علم الله تعالى بهم أنّهم سيصبرون، وإنّ هذا البلاء ضمن حدود استطاعتهم، فهم بالتالي قد استحقّوا أن ينالوا به مراتب أعلى وأجلّ من الكمال والمنزلة العظيمة في الدنيا والآخرة؛ ولذا ورد عن الإمام الحسين عليه السلام: «ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي». كيف لا والعقيلة زينب تضع يدها خلف جثمان أخيها رافعة رأسها إلى السماء قائلة: «اللهمّ تقبّل منّا هذا القربان»^(١).

الأطروحة الثالثة: إنّ اقتضاء المشيئة الإلهية لشراكة العيال في هذه المظلومية والمأساة في حدود السبي هي أرسخ من غيرها؛ لما ذكرنا من أنّ الهدف الإلهي أو الإرادة الإلهية لم تتعلّق بالسبي، بل بأمرٍ آخر وهو الغاية من السبي، فلو تتبّعنا الأخبار وما جرى من بيانات وكلمات ألقتها العقيلة زينب عليها السلام أو الإمام السجّاد عليه السلام باعتبار كونه مريضاً، وهو مشمول بعنوان أنّه من عيال الإمام الحسين عليه السلام، الذين سقط عنهم تكليف رفع

(١) الحسني، هاشم معروف، سيرة الأئمة الاثني عشر: ج ٢، ص ٨٧.

السلاح، فإنّ هذه الأدوار التي ذكرها التاريخ كانت للحفاظ على بيان تلك المظلومية، فمع ما كان لعبيد الله بن زياد وليزيد من حالة مرعبة في نفوس المسلمين؛ لسطوتهم وظلمهم، نجد أنّ الإمام السجّاد وعمّته زينب عليها السلام وقفوا بكلّ عزم وهمة أمامه، ولم يُظهروا أيّ نوع من أنواع الانكسار والخسارة، كيف وهي تنهى العيال عن أن يأخذوا الطعام من أهل الكوفة، وتقول: إنّ الصدقات محرّمة على أهل البيت - كما ذُكر في المقاتل - وهذا الدور هو في الحقيقة إكمال لمسيرة الإمام الحسين عليه السلام، وهو الوقوف في وجه الظالمين، الذي لا زال مستمراً بعد أن أوقد الحسين عليه السلام جذوته.

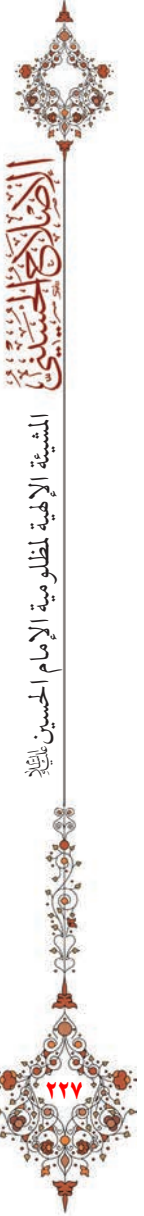
مظلومية الإمام الحسين ودولة العدل الإلهي

يمكن الكلام عن ذلك في محورين:

المحور الأوّل: مظلومية الإمام الحسين وبداية حركة الظهور المقدّس

إنّ كلّ حركة أو ثورة - مهما كانت أهدافها، ومهما كانت طبيعتها - لا بدّ لها أن تحمل شعاراً، هذا الشعار يُمثّل رمز الثورة، وهذه الرمزية للشعار تحمل بين طيّاتها أهداف الثورة ومطالبها، ويمكن أن تتضمّن طبيعة الثورة من حيث كونها سلمية أو عسكرية، كذلك امتدادها من حيث كونها ذات طبيعة جغرافية محدّدة ضمن إقليم أو بلد أو ربّما أوسع.

إنّ تواتر الروايات عند الفريقين - في ما لو أهملنا ما تضمّنته باقي الديانات من نصوص - والتي تُشير إلى وجود المنقذ العالمي الذي سيملا الأرض قسطاً وعدلاً، وسيقضي على كلّ أنواع الظلم، ويعمّ الخير والعدل على أرجاء المعمورة، فهي قضية عالمية تشمل كلّ بقاع الأرض، وقد وردت روايات تدلّ على أنّ شعار ثورة الإمام المهدي عليه السلام - مهما كانت طبيعتها - هو: (يا لثارات الحسين)، ومنها: ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «وهم من خشية الله مُشفقون، يدعون بالشهادة، ويتمنّون أن يُقتلوا في سبيل الله، شعارهم: يا لثارات



الحسين عليه السلام، إذا ساروا يسير الرعب أمامهم مسيرة شهر»^(١).

والسؤال الذي يمكن طرحه هنا: إن قضية الإمام المهدي عليه السلام إذا كانت لها سمة عالمية، فلم إذا ترفع شعار: (يا لثارات الحسين) مع أن قضية الإمام الحسين عليه السلام ذات طابع إسلامي؟ ويمكن الإجابة عن ذلك بعدة أوجه، منها:

أولاً: إن قضية الإمام الحسين عليه السلام، وإن كانت ضمن حدود الدولة الإسلامية، إلا أنها حملت القيم والمبادئ المتسام عليها دولياً، سواء في زماننا هذا - وهو القدر المتيقن - أو في زمان الظهور، فإننا لا نجد أي نوع من التعارض بين بيانات الأمم المتحدة وقانون حقوق الإنسان مع ما جرى على الإمام الحسين عليه السلام، فهي بذلك تنسجم تماماً مع هدف ثورة الإمام المهدي عليه السلام ضدّ الظلم، وأوضح مصاديق المظلومية عالمياً هي مظلومية الإمام الحسين عليه السلام، والتاريخ الذي بين أيدينا كفيل ببيان هذه المظلومية والمأساة، ولعلنا نشهد في وقت ما اعترافاً دولياً بجريمة إنسانية، هي: مقتل الحسين وأهل بيته عليهم السلام، تجعل منها شعاراً للمنقذ العالمي.

ثانياً: إننا نتمسك بحقيقة أن قضية الإمام الحسين عليه السلام لم تأخذ حقها إلى الآن في البحث والتحقيق، خاصة وإننا نعلم أن من كتب في قضية الإمام الحسين عليه السلام من الأوائل لم يكن لهم الحرية المطلقة فيما يكتبون ويؤرخون، أو يتحققون من الرواية المنقولة؛ ولذا ذكر الطبري في مقدمة كتابه ما نصّه: «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنع سامعه؛ من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنّا إنّما أدّينا ذلك على نحو ما أدّى إلينا»^(٢).

إلا أنّنا يمكن أن نثبت - بإقامة بعض القرائن - أن مظلومية الإمام الحسين عليه السلام لم

(١) الطبرسي، ميرزا حسين النوري، مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ١٠١.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ١، ص ٥.

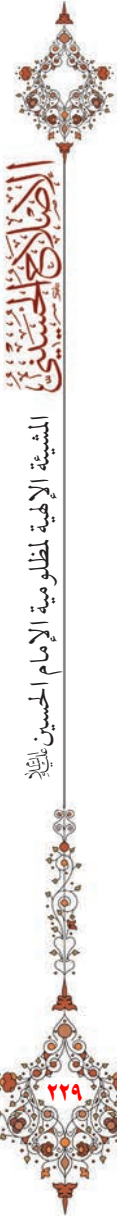
تكن قضية داخلية فحسب، بل إنّ هناك جهات عالمية في ذلك الزمان كانت لها اليد الطولى في تدبير هذه المأساة على الإمام الحسين عليه السلام، ومنها: ما ورد على لسان العقيلة زينب عليها السلام عندما خاطبت يزيد في مجلسه قائلة: «وسيعلم من بؤأك ومكنك من رقاب المسلمين، (أن) بئس للظالمين بدلاً، وأنكم شرّ مكاناً وأضلّ سبيلاً»^(١).

كذلك ما ورد من الكتاب الذي عرضه سرجون المسيحي على يزيد، إذ ورد: «وكتب عبد الله بن مسلم، وعمارة بن عقبة، وعمر بن سعد إلى يزيد بن معاوية: أما بعد، فإنّ مسلم بن عقيل قدّم الكوفة فبايعه شيعة الحسين بن علي، فإن يكن لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك، ويعمل مثل عملك في عدوك، فإنّ النعمان بن بشير رجل ضعيف أو هو يتضعّف. فلما وصلت الكتب إلى يزيد دعا سرجون مولى معاوية فقال له: ما رأيك؟ إنّ حسيناً قد وجّه إلى الكوفة مسلم بن عقيل يبايع له، وقد بلغني أنّ النعمان ضعيف، فمن ترى أن أستعمل على الكوفة؟ وكان يزيد عاتباً على عبيد الله بن زياد، فقال له سرجون: أرأيت معاوية لو نشر لك أكنت آخذاً برأيه؟ قال: نعم. قال: فأخرج سرجون عهد عبيد الله على الكوفة، وقال: هذا رأي معاوية وقد أمر بهذا الكتاب، فضمّ المصريين إلى عبيد الله»^(٢).

وفي الخبرين دلالة واضحة على أنّ تدبير مقتل الإمام الحسين عليه السلام لم يكن قراراً داخلياً صرفاً، بل إنّ مندوب الدولة البيزنطية كان له أثر في هذه المظلمية، وبالتالي يمكن أن نقول: إنّ مظلومية الإمام الحسين عليه السلام ذات طبيعة عالمية، ومخطّط لها دولياً من قبل دول الاستكبار العالمي آنذاك، فهي بهذه الحالة إضافة إلى الأطروحة الأولى - من كونها تمثّل أوضح أشكال المظلومية في تاريخ الإنسانية - تمثّل الشعار الأوحّد الذي يمكن أن يكون رمزاً لثورة المنتقد العالمي.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ١٥٩.

(٢) المصدر السابق: ج ٤٤، ص ٣٣٧.



ثالثاً: إنّ قضية الإمام الحسين عليه السلام وحركته وإن كانت ضمن حدود جغرافية معينة، وأنها تأطرت بعنوان محدّد بوصفها إسلاميّة، إلّا أنّ هذا لا ينافي كون هذه الحركة ذات طابع عالمي، أو أنّ حقيقتها وجوهرها عام.

إنّ قضية الإمام الحسين عليه السلام عالمية بأهدافها، وعالمية بحقيقتها؛ لأنّها تمثّل الامتداد الحقيقي لرسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله، ورسالة النبي صلى الله عليه وآله عالمية بلا شكّ، والآيات القرآنية متضافرة على هذا المفهوم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

المحور الثاني: المظلومية وخلق الاستعداد

إنّ من أهمّ الشروط الواجب توافرها لبداية الظهور المقدّس هو وجود العدد الكافي المخصّص من المؤمنين، الذين يأخذون على عاتقهم مهمّة إقامة دولة العدل الإلهي إلى جانب الإمام المهدي عليه السلام، وهذا العدد لا بدّ له من مميّزات تجعله قادراً على تحمّل أعباء المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه، وسواء كان من العدد (٣١٣) المحدّد في كثير من الروايات، أو من العدد (١٠ آلاف) المحدّد في روايات أخرى، كون العدد الأخير يُعتبر القوّة التي لا بدّ وأن تتوافر في بداية الظهور كما دلّت عليه رواية الصدوق عن أبي بصير قال: «سأل رجلٌ من أهل الكوفة أبا عبد الله عليه السلام: كم يخرج مع القائم عليه السلام، فإنّهم يقولون: إنّهُ يخرج معه مثل عدّة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً؟ قال: وما يخرج إلّا في أوّلي قوّة، وما تكون أوّل القوّة أقلّ من عشرة آلاف»^(٣).

(١) الأنبياء: آية ١٠٧.

(٢) سبأ: آية ٢٨.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، كمال الدين ونظام النعمة: ص ٦٥٤.

وعلى كل حال، فالعددان مهمّان في بداية الظهور، والأوّل يُمثّل القادة الرئيسيين في إدارة العالم، والعدد الثاني يُمثّل طليعة جيش الإمام في بداية الظهور، والذي من المؤكّد أنّه سيزداد شيئاً فشيئاً، كما يبدو للمتبع.

إلا أنّ ما يهّمنا في المقام هو درجات الإخلاص والإيمان التي يتحلّى بها هذان العددان من المؤمنين، فإنّ من أهمّ ما يميّزهم هو درجة الإيمان والاستعداد العالي من أجل التضحية في سبيل إقامة الهدف الإلهي بنشر العدل على أرجاء المعمورة، وهذا الاستعداد لا يمكن تحصيله إلا بالتربية المركّزة التي تتركّز أكثر بعد الظهور، أمّا قبل الظهور المقدّس فإنّ هناك عوامل كثيرة تكفّلت بتربيتهم، ومنها: المظلومية والاضطهاد الذي يتعرّض له الضعفاء في العالم، ممّا يشعل في نفوسهم جذوة الحماس والإصرار على تغيير الواقع الأليم، فإذا كانت هناك مظلومية لها الدور الأكبر في بنائهم وتربيتهم، وخلق الاستعداد لديهم، من أجل إقامة المشروع الإلهي على الأرض، فهي مظلومية الإمام الحسين عليه السلام، فإنّها تُمثّل الأسوة الحسنة والمثال الأوضح لمن ظلّم من أجل الدين، وضحّى بنفسه وبكلّ ما يملك من أجل تحقيق هذا المشروع.

فبالإمكان القول: إنّ المشيئة الإلهية للمظلومية والمأساة في واقعة الطف هدفها خلق الأسوة الحسنة للمؤمنين على مرّ الدهور؛ للتضحية من أجل الدين، حتّى يتحقّق حلم الأنبياء عليهم السلام على يد المنقذ المخلص وأصحابه، الذين جعلت منهم تلك الدروس أشخاصاً على مستوى عالٍ من الاستعداد لتحمل هذه المسؤولية، فهم وفي كلّ حين عندما يستذكرون تلك المظلومية والمأساة التي جرت على سبط المصطفى وعياله، وتلك الممارسات البشعة التي مارسها بنو أميّة وشيعتهم على آل الرسول وأصحابهم، يرون أنّ نصرته واجبة؛ لأنّ فيها رضا الله تعالى، ونصرة الحسين عليه السلام، من خلال تحقيق هدفه الذي رفع شعاره في قوله المشهور: «وإني لم أخرج أشرّاً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر»^(١).

(١) الأمين، محسن، لوايع الأشجان: ص ٣٠.

